WWW.ATHAREBARTAR.COM

مناهج العلماء المسلمين

في البحث العلمي

تأليف : الدكتور فرانتز روزنتال
ترجمة : الدكتور أنيس فريحة
مراجعة : الدكتور وليد عرفات

نشر وتوزيع
دار الثقافة
بيروت - لبنان

WWW.ATHAREBARTAR.COM

المسرحيون في هذا الكتاب

المؤلف : الدكتور فرانتز روزنتال

ولد في برلين عام ١٩١٤ ، وتلقى علومه في جامعتها حيث حصل على درجة الدكتوراة عام ١٩٣٥ . قدم الى الولايات المتحدة الاميركية عام ١٩٤٠ وعمل استاذاً مساعداً للغات السامية في كلية الاتحاد العبري في سنسناتي من ولاية اوهايو . درّس اللغة العربية في جامعة بنسلفانيا ؛ وهو يشغل منذ عام ١٩٥٦ منصب استاذ كرسي لويس م . رابينويتز للغات السامية في جامعة ييل . له عدة مؤلفات ، وقام بأبحاث عن الشرق الادنى وتركيا اثناء تجواله فيها .

المترجم : الدكتور انيس فريحة

من مواليد لبنان . يشغل الآن منصب رئيس دائرة الدروس العربية في الجامعة الاميركية في بيروت واستاذ اللغات السامية في تلك الدائرة وفي الجامعة اللبنانية . له مؤلفات عديدة منها : نحو عربية ميسرة ، اسمع يا رضا ، اسماء القرى والمدن اللبنانية وتفسير معانيها ، الامثال اللبنانية العامية (في مجلدين) ، حضارة في طريق الزوال : القرية اللبنانية ، تبسيط قواعد اللغة العربية : اقتراح ونموذج ، مشكلة الخط العربي ، وغيرها .

WWW.ATHAREBARTAR.COM

المراجع : الدكتور وليد عرفات

ولد بمدينة نابلس من اعمال فلسطين سنة ١٩٢٠ وتخرج في الكلية العربية بالقدس عام ١٩٤١ ثم نال شهادة الماجستير في الادب الانجليزي وشهادة الدكتوراة في الادب العربي من جامعة لندن . وقد نشر عدة ابحاث في المجلات العلمية وبخاصة مجلة (BSOAS) ، وحقق ديوان حسان ابن ثابت تحقيقاً علمياً دقيقاً . وهو الآن أستاذ للادب العربي بمعهد الدراسات الشرقية والافريقية التابع لجامعة لندن .

WWW.ATHAREBARTAR.COM

القسم الأول

مقدمة

سيجد القارىء في هذه الدراسة بعض الفوائد التي توضح نظرة العالم المسلم الى المشكلات الاساسية التي تتعلق بالبحث العلمي ، اساليبه وطرائقه. وهذه الفوائد ليست تامة ولا شاملة ، ولو انها كانت كذلك لملأت اكثر من مجلد ضخم . غير انها دراسة تتضمن بعض الحقائق والمعلومات عن مواضيع قل منها ما لقي كبير عناية حتى اليوم ، واقل من ذلك ما خص بدراسة مركزة تستحق ان تخصص له . وغايتنا الرئيسية ان نبين وجوه الشبه ووجوه التباين بين البحث العلمي لدى المسلمين والبحث العلمي في الغرب .

ولقد حاولنا ان نكتشف كيف كان العالم المسلم يفكر في هذه المشكلات لا كيف كان يكتب ويؤلف . ويعلم القارىء ان المخطوطات لمؤلف ما كثيراً ما تختلف الواحدة عن الاخرى ، وان هذه الاختلافات في النص تزداد كلما تعرضت المخطوطة لنسخ النساخ ورواية الرواة . ونستطيع ان نتتبع هذه الاختلافات وما يماثلها من الظواهر بيسر اذا نحن عارضنا ما تحدر الينا من مخطوطات لهذا الكتاب او لذاك . والذي يهمنا من الامر هنا ان نعلم اذا كان العلماء المسلمون قد لاحظوا هذه الظواهر وكيف عبروا عما لاحظوه . ولا يهمنا في هذه الدراسة كذلك ان نبرهن برهاناً قاطعاً ان هذه الفكرة او تلك مما يرد في الكتابات العلمية لدى المسلمين هي مثلاً من اصل هندي ، انما يهمنا ان نعلم ان

WWW.ATHAREBARTAR.COM

المسلم كان يفترض ان هذه الفكرة هندية سواء اكان افتراضه يتفق مع الحقائق التاريخية ام لا يتفق . وكذلك لا يهمنا ، بالنسبة الى غايتنا من هذه الدراسة ، ان نستعيد الصور والاشكال التي التزمها التطور الفكري مما يمكن ملاحظته في البحث العلمي عند المسلمين ، انما يهمنا ان نبين هل كان المسلم يدرك او انه لا يدرك وجود ظاهرة التطور التدريجي في العلم والفكر .

قد يبدي بعض الناس اعتراضاً او عدم رضا عن اسلوب العرض الذي سنتبعه في هذه الدراسة ، وقد يكون في هذا الاعتراض شيء كثير من الصحة . وقد يكون لعدم الرضا ما يبرره ، ولذا يتوجب علينا ان نوضح موقفنا من الامر .

قد يقال لنا ان المادة التي جمعناها لا تخولنا ان نبني عليها نتائج نهائية عامة ، لان هذه المادة ليست سوى ملاحظات عابرة مستمدة من كتابات لاشخاص تميزوا بالتفوق الفكري — وقد يقال لنا ايضاً ان المجرى العام للحياة العقلية الاسلامية لم يكن بالصفاء والوضوح الذي يتراءى لنا من النماذج التي احتججنا بها. وقد ذكرنا بعضهم بان الكاتب الواحد عادة لا يمد الباحث باكثر من بضع ملاحظات ذات علاقة بالموضوع ، وان تجمع الادلة في فترة معينة محدودة لا يتم في الواقع . وقد يقول بعضهم انه لم يظهر في الحضارة الاسلامية اسلوب منظم لمعالجة مشكلات البحث العلمي .

على انه يجب ان نذكر ان معظم المادة الادبية التي رجعنا اليها محصورة في نتاج القرنين التاسع والعاشر ونتاج القرنين الخامس عشر والسادس عشر . ومن المتوقع ان يكون الاحتجاج أتم واشمل وموزعاً توزيعاً عادلاً حالما تتوفر لنا دراسات مركزة عن المؤرخين والفلاسفة والاطباء المسلمين وعن اسلوب كتابة التأريخ واسلوب التأليف الفلسفي والطبي عند المسلمين .

ومن جهة اخرى قد يكون هذا الخلو الظاهر من اساليب العلم المنتظمة دليلاً على نقص فعلي يتصف به البحث العلمي الاسلامي . نعم ان الادب العربي يعكس

WWW.ATHAREBARTAR.COM

لنا بعض المحاولات التي كانت تبذل في سبيل ايجاد اسلوب منظم في البحث العلمي ولكنها محاولات لم تتعدد ، وذلك ، ربما ، لانعدام الوسائل التقنية التي لا يجدي دونها اي اسلوب منظم نفعاً مهما بذل المؤلف من جهد في هذا السبيل . اذ أي نفع يرتجى من وضع نظام صارم وقواعد مفصلة لتحقيق نص مخطوطة ما بمعارضتها بجميع المخطوطات الاخرى اذا لم يكن لدى محقق النص سوى مخطوطة واحدة في متناوله ؟ وفضلاً عن هذا فان حالة المخطوطات الزرية وشكلها واحجامها لم تكن لتيسر للمحقق في النصوص ضبط وتسجيل الاختلافات والفروقات التي يتوخى جمعها من معارضة مخطوطة باخرى . كذلك أي نفع يرتجيه المحقق من وضع قوانين صارمة ثابتة لحكم فيما يجب قبوله وفيما يجب رفضه طالما ليس لديه وسيلة للتثبت من صحة رواية تبدو مريبة ؟ وعلى كل ، فان ما نشأ في الشرق من تنظيم الاساليب وان قل فقد انحصر على العموم في حقول معينة من حقول المعرفة . اما في الغرب فاننا نلحظ اتجاهاً نحو اتباع اسلوب في التحقيق العلمي ذي قوانين صارمة يتناول جميع حقول النشاط الفكري ، وهو اتجاه جذوره متأصلة في العصور الوسطى .

والسبب في ذلك هو ان ما تحدر الى الغربيين من بقايا حضاراتهم القديمة ليس سوى نبذ قليلة ، وهذه القلة جعلت العالم الغربي يُعنى بتراثه الثقافي الضئيل عناية المقل المقتصد – أي بطريقة منتظمة . مثلاً كان لنشأة التجارة بشكلها البدائي ولقيام حياة مدنية ، أثر ظاهر في تطور القوانين والعادات والعرف الذي تميزت بها ادارة المدن في الغرب ، ومهدت السبيل لهذه الادارة كي تلعب دورها الثوروي الخطير في تاريخ الغرب . وكان الامر على نقيض هذا في الشرق ، فان قيام مدن كبيرة منذ اقدم عصور التاريخ ، مدن حسنة التنظيم والادارة ، لم يترك مجالاً للمزيد من التحسين والتطوير .

ومن الطرق المنتظمة لمواجهة مشكلات البحث العلمي طريقة عرفت في الغرب

WWW.ATHAREBARTAR.COM

باسم Pecia [1] أي التنسيخ ، او بالاحرى التنسيخ الجماعي ، وهو توزيع اجزاء المخطوطة الواحدة على عدد من النساخ . والظاهر ان هذه الطريقة لم تنشأ في الغرب عن رغبة في الدقة والامانة في النسخ بقدر ما كانت نتيجة لقلة عدد النساخين الذين كانوا ينسخون اما لانفسهم او للآخرين باقل ما يمكن من الوقت وبأقل ما يمكن من اغلاط . ولكنه بالرغم من هذا فاننا نجد في هذه الطريقة جميع عناصر الانتاج الضخم المنظم على نطاق واسع مع مراعاة الدقة والامانة ، وهو ما كان له اكبر الاثر في النمو الهائل الذي حققه النشاط الفكري في الغرب فيما بعد . اما في الشرق فلم توجد في اي وقت من الاوقات قلة في النساخ تستلزم قيام عادة التنسيخ الجماعي ، ولم يكونوا يستصوبون تقسيم عملية النسخ على عدد من النساخ الا في حالات وظروف خاصة ، كما حدث عند نسخ تاريخ دمشق لابن عساكر ، وكان في ثمانين مجلدا . وقد اختير لهذا العمل عشرة من النساخين انتهى كل منهم من نسخ ما سلم اليه في سنتين وهي مدة غير طويلة [2] .

ان الشرق لم يستسلم الاستسلام كله لخطر احلال الفلسفة الكلامية المحدودة النطاق محل التراث الفكري الخصب المتنوع . اما الغرب الذي لم يكن يعرف شيئاً يذكر سوى الفلسفة الكلامية فقد أدى به فقره الفكري الى وضع نظام صارم للبحث العلمي . وبما انه لم يكن عند العلماء الغربيين سوى عدد محدود من الافكار، لم يبق لديهم سوى تشريح هذه الافكار، ثم اعادة تركيبها مرة بعد اخرى. وهذه الطريقة التي اتبعها الغرب اسفرت عن خلق الوان رفيعة من طرق العرض الادبي [3] .

وبما ان الشرق لم يوفق الى ايجاد حل عام لكثير من المشكلات الاساسية في

---

(١) Cf. J. Destrez, La pecia dans les manuscrits universitaires du XIIIe et XIVe siècle (Paris, 1935) .

(٢) ابن ابي أصيبعة : عيون الانباء في طبقات الاطباء ، الجزء الثاني ص ٢٣٦ .

(٣) Cf. L. Thorndike, A History of Magic and Experimental Science, I, 50 (New York, 1923) .

WWW.ATHAREBARTAR.COM

البحث العلمي فان ما يظهر في هذه الملاحظات التي جمعناها في هذه الدراسة من صفة العفوية وعدم التناسق مرده الى حد ما الى طبيعة الموضوع نفسه . ولكن لا نكران للقول بأنه لا بد من كثير من البحث قبل ان يمكن عرض اسلوب العلماء المسلمين ونظرتهم الى البحث العلمي على ضوء من الحقائق التاريخية الدقيقة .

وقد يكون في هذه الدراسة نفع آخر غير مقصود بالذات ، وهو انها قد تلقي شيئاً من النور على المشكلة التي كثر الجدل حولها الا وهي طبيعة الحضارة الاسلامية وطابعها المميّز. فان التاريخ الاسلامي ، السياسي منه والثقافي والديني، قد تعرّض لتفسيرات واجتهادات مختلفة . والفقرات المقتبسة التالية التي استشهدنا بها ترينا الى اي حدّ تتباين الآراء وتختلف الاحكام حول هذه القضية . وهذه الفقرات مقتبسة من كتابات علماء مختلفين في البيئة متفاوتين في العصر ولكنهم بالرغم من ذلك مشهود لهم بالمزيد من ثاقب النظر في المشكلات التي عالجوها . فان الفيلسوف هيجل في مؤلفه الموسوم بـ « محاضرات عن تاريخ الفلسفة » يصف التاريخ السياسي للعالم الاسلامي بقوله انه « مجرد معرض للتغيّرات الدائمة » [1] .

ثم يتابع كلامه قائلاً : « في هذا الاوقيانوس الذي لا حدود له (يريد نشوء الدول والممالك الاسلامية) نجد ان الفتح والتوسع ابداً في استمرار ولا شيء ثابت او جامد . وكلما ظهرت احدى التموجات وارتفعت لكي تتخذ شكلاً ما، اضمحلت وانحلت وهي ترتفع دون ان تفقد شفافيتها » .

---

(١) Hegel's collected works, edited by F. Lasson, 8,4.793 (Leipzig, 1920) .

ان هذا القول الذي اقتبسناه اعلاه عن هيجل يسبق العبارة : « كثير من الممالك والاسر الحاكمة ... » ولا ورود له في الطبعات المختلفة لمؤلفات هذا الفيلسوف .

WWW.ATHAREBARTAR.COM

وبعد مرور ٥٠ سنة قام المستشرق فون كريمر – أحد الرواد في تاريخ الحضارة الاسلامية – يحارب الاعتقاد الخاطىء السائد في الغرب منذ مدة طويلة ، بان طبيعة الفكر في عالم الشرق لا تقبل التطور . يقول : « ان كل نسمة من نسمات الرأي العام الاوروبي تترك تموجاً عنيفاً . اما في الشرق فان ما يبدو على سطح الحياة يظل هادئاً ساكناً كالمرآة الى ان يتفجر فجأة من الهدوء التام قوة تندفع من الاسفل بشكل براكين من القوة المخربة »(١).

وبعد مرور خمسين سنة اخرى قام مستشرق اخر ، هو جولدتسيهر (Goldziher) يتحدّى صواب الرأي السائد الذي أبداه كينن (A. Kuehnen) والقائل بانه « قدّر للاسلام بعد فترة قصيرة جداً من النمو والتطور ان يتخذ شكلا جامداً ثابتاً لا يقبل التغيّر » . وكان التاريخ الداخلي للحركات الدينية السياسية في الاسلام يبدو في نظر جولدتسيهر على انه « صراع مستمر بين السنة والبِدَع أي بين مبدأ العرف الذي لا يلين وبين المحاولات الدائمة لتوسيع نطاق هذا المبدأ وللخروج من الاطار الذي اقامه » .(٢)

اذن كان هيجل يرى في الاسلام ظاهرة لا شكل لها ولا صورة ، تدفع بها الوحدة الروحية الكامنة في الاسلام الى التعصب والتزمت ، وبالتالي لم يستطع ان يبلغ في نهاية الامر وحدة متآلفة . اما فون كريمر فقد حاول ان يوفّق بين الزعم بوجود الجمود الحضاري في الشرق وبين ما اكتشف من معارف جديدة تدل بوضوح على وجود حركات عظيمة مستمرة وتغيّرات دائمة في العالم الاسلامي . وطبق جولدتسيهر نظرية التطور الحديثة على المشكلات التي تعترض سبل الباحث في دراسته الاسلام . ونحن نستطيع ان نقدم أمثلة اخرى لآراء متباينة مختلفة حول نظر الباحثين في الاسلام . ولكننا لا نرى ضرورة لبعث

---

(١) Geschichte der herrschenden Ideen , 184 (Leipzig , 1868) .

(٢) Vorlesungen über den Islam 285 f. (Heidelberg 1910), 2nd edition , 261 f. (Heidelberg 1925) .

WWW.ATHAREBARTAR.COM

هذه النظريات الخاطئة التي كانت واسعة الانتشار في عصر سابق والتي من شأنها ان تصوّر التاريخ السياسي الاسلامي على انه سلسلة مملّة من الحكام الطغاة ، والتاريخ الحضاري على انه تكرار ممل ّ ايضاً للفِكَر والاشكال ذاتها ، والتاريخ الديني على انه بقايا متحجرة يتناقلها كل جيل عن الجيل الذي سبقه بحرص وأناة .

واننا لنعثر عند الباحثين الغربيين الذين درسوا الحياة الفكرية الاسلامية على احكام متناقضة شبيهة بهذه التي جئنا على ذكرها . واليك ما يقوله فون كريمر عند وصفه النشاط العلمي عند المسلمين :

« ان اعظم نشاط فكري قام به العرب يبدو لنا جلياً في حقل المعرفة التجريبية ضمن دائرة ملاحظاتهم واختباراتهم . فانهم كانوا يبدون نشاطاً واجتهاداً عجيبين حين يلاحظون ويمحصون وحين يجمعون ويرتبون ما تعلموه من التجربة او اخذوه من الرواية والتقليد . ولذلك فان اسلوبهم في البحث اكبر ما يكون تأثيراً عندما يكون الامر في نطاق الرواية والوصف .

«ولذا يحتل التاريخ والجغرافية المقام الاول في ادبهم . وبصفتهم اصحاب ملاحظة دقيقة ، وبصفتهم مفكرين مبدعين فانهم قد اتوا باعمال رائعة في حقلي الرياضيات والفلك . وللسبب ذاته نجح العرب في التشريع وفي وضع قواعد اللغة من صرف ونحو في شكل شامل محكم . ولكن من جهة ثانية نجد انهم في حقل المعرفة النظرية والتفكير التجريدي لم يستطيعوا ان يتعدوا حدود الفلسفة الارسطوطاليسية والافلاطونية . وعندما كانوا يحاولون الخروج من اطار الفلسفة الاغريقية كان الخيال الشارد يؤدي بهم الى خيالات وأوهام ، واخيراً الى نوع من الغيبية التي لا شكل لها»[1].

---

(١) Culturgeschichte des Orients II , 466 (Vienna , 1875 - 7)